

آياتُ البيان في دلالةِ المفرد والمثنى في سورة الرَّحْمَانِ

Title in English (AYET) Verses Of Explanation In The Meaning Of

Singular And Dual In Surat -ArRahman

حليمة قطاي*

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)

guettai.halima2020@gmail.com

تاريخ القبول: 2025-05-28

تاريخ الإرسال: 2025-03-17

ملخص:

سورة الرحمن من السور التي ركزت على مخاطبة الثنائيات وتصويرها بشكل فني في النص، تأسس الخطاب على هذه الثنائيات اللغوية لتوجيه القارئ إلى النظر في الخلق والكون وصرفه إلى الآيات الكونية المتقابلة في شكل ثنائيات، من آيات الخلق والعظمة إلى آيات وبرهان الجمال وبديع الخلق والتصوير الذي جاء متناسبا في كل الأزواج الخلقية المتقابلة أو المتكاملة، ثم علاقة كل هذا باللفظة المفردة الوحيدة في السورة وهي لفظة (الرَّحْمَانُ) بمجموع الثنائيات التي ترتبط كلها بهذا المفرد/المفردة: الرَّحْمَانُ، ابتداء بالثنائية اللفظية الخاصة بالخلقين المخاطبين: (الجن والإنس)، الدال عليهما والمخصّصين بالخطاب من خلال لازمة التكرار فـ "بِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ".

الكلمات المفتاحية: مفرد؛ مثنى؛ رحمان رحيم؛ خطاب؛ ثنائيات.

Abstract:

Surat Al-rahmanis one of surahs that concentrated on addressing and depicting dualities; even as if the discourse was established on these dualities in dispensing the problem formed from the twofold verses and the proof of beauty; the magnificence of creation and the depiction that was fit all the dualities of creation.

Then the relationship of all this to the only single word in the group of dualities that are all related to this singular. The most creation began with the duality of human beings; the JINN to the signifier of it, and the specific to the discourse through the continued repetition (so by what signs (Ayats) of your lord you lie).

Keywords: Single; dual; Rahman; mercy; speech.

سورة الرَّحْمَان هي السورة رقم 55 في ترتيب المصحف القرآني، وعدد آياتها 78 آية؛ تسبقها مباشرة سورة القمر، وتلحقها تاليا سورة الواقعة. واسم السورة وعنوانها يرتبط باسم من أسماء الله المباركة، وهو الرَّحْمَان، وهذه المفردة تمثل الآية الأولى بالإضافة إلى تسمية السورة وعنوانها، وهو العنوان الوحيد لسورة قرآنية تسمّى فيها باسم من أسماء الله وصفاته. وجاء ذكره في الخطاب القرآني سبعا وخمسين مرة، ارتبطَ في ست مواضع منها بلفظة الرَّحِيم كما في سورة فصلت مثلاً: "تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ" الآية 2؛ فضلاً عن ذكرها مائة وأربعة عشر مرة مقترنة بالرحيم، في البسملة، هذا الخطاب الصغير (البسملة) الذي يسيّج النص القرآني الواحد (السورة) ويحفظها كنسقٍ مكتفٍ دلالياً من جهة أولى، ثم كنص متمم من جهة أخرى، بتأسيسه للجزء الكل.

أما عن علاقة السورة بما يمثلها أو أنتجها من حدث، وفي ربط الخطاب بمرجعيتها التي تأسس على أرضيتها، وفي سبب نزول السورة: تذكر بعض الروايات أنّ آية فيها جاءت ردّاً على أبي بكر الصديق¹، إذ ذكر ذات يوم القيامة، والموازين، والجنة والنار، فقال: وددتُ لو أنّي كُنْتُ خضراء من هذه الخضرة تأتي عليّ بهيمة تأكلني، وإنّي لم أخلق، فنزلت فيه "وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ" الآية 46. ومن حيث هذه الآية، ومقابلة المثنى للمفرد فيها؛ فإن فعل الخوف الدنيوي من المستقبل الأخروي عند المفرد (أبي بكر)، قابله فعل الجزاء أو الجائزة المثنى وهي المقام_الجنّتان.

1- الرّحمانية: وسم مفردٌ لخالق متفرد:

الرّحمان: اسم مبالغة من فعل رَجَمَ ومصدرها الرّحمة، ولا يليق بغير المتصف به وهو المتصف بالألوهية. ومنه الرّاحم والرّحيم/ الفاعل والفعل؛ وهذان يليقان بال مخلوقات ومنها الإنسان، وهنا يبدأ تخصيص الأفراد لهذه الذات في الصفة التي تصبح ثابتة باقترانها بالذات الإلهية؛ ابتداء من الصيغة الصّرفيّة للفظّة (فعالن) يشمل ذلك السعة والكمية

¹ _ السيوطي، جلال الدين، لباب النّقول في أسباب النّزول، دار الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 2002، ص250.

والحالة، فالرحمة التي هي صفة لازمة للخالق وتحيط بكل مخلوقه، وهي صفة تفرّد وتميّز لا تقع على غيره، لأنها مفعلة في الزمان ومترتبة في الخلق، وصيغة الصفة الفعلان، تثبت حالة حدوث الفعل في استمراريته وديمومته. فهو دائماً في حال رحمة لخلقه. إنّ هذا المفرد المختلف (الرحمان)؛ هي صفة مخصوصة بالله وحده، وفي تفسير الطبري أن الرحمن برحمته أو من رحمته أن علم الإنسان القرآن¹ ثم جمعت هذه الصفة في إحاطتها بالخلقين.

ربطت بخلقين وتعليمين، القرآن وتعليمه ثم خلق الإنسان وتعليمه. لكنّه مع كلّ حادث يتلوّه في الخطاب يبيّء لكل مفرد ما يقابله أو زوجه. ومع أنّ الخطاب فيما بعد موجّه إلى الخلقين المختلفين، الإنس والجان كما سيّضح في البحث والتفاسير، إلّا أنّه في مفتتح السورة يقرن تعلم البيان والقرآن بالإنسان، وهي ثلاثتها البيان والقرآن والإنسان أعظم صور الخلق، وكان الإنسان هنا مخصوصاً أيضاً، وهذا المخصوص لن يكون إلا هذا المرسل الذي سيوصل رسالة القرآن أو البيان؛ وهي أحد أكثر صور تجلّي الرحمانية؛ ثم إنّّه في كل المشاهد التقابليّة يبدو الخلق منقاداً مطواعاً للخالق المتصف بالرحمة، في حين تظهر الآية الارتجاعية الدالة على الخلقين: الإنس والجن والمقصود التعريض والتوبيخ على الطغيان رغم ضعف هذين المخلوقين، كما يذكر ابن عاشور في التحوير والتنوير في تفسير الآية.

وقد نسبت صفة الرحمانية لله وحده، الذي اشتق اسمه من الرّحم أيضاً، والتي هي موضع والأصل في المحبة والرحمة ولهذا جعلها الله من أسمائه المتفرد بها. ورد اسم الرحمن في القرآن الكريم سبعا وخمسين مرة كما ذكر أنفأ، ولقد أنكر المشركون اسم الرحمن على الله، لأنّه اسمٌ جاء في قالب الصّفة؛ فقد عبّى عليهم وغم على فهمهم، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ، قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟) (الفرقان 60). وهي لفظة جاء على ذكر سبع عشرة منها في سورة واحدة هي سورة مريم، وفيها مقال آخر، لما تحمله هذه السورة من دلالات الرحمة والرحمانية التي خصّ بها أصحاب الصفوة المذكورين في

1 _ الطبري، محمّد بن يزيد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مؤسسة الرسالة. لبنان. ط1، 2012، تفسير سورة الرحمن.

السورة، مقرونة بدلالة الاسم مريم، كاسم مؤنث، وعما تدل عليه من رحمة في صورتها كمخلوق هو الأرحم (الأم).

ونعود إلى سورة الرَّحْمَانِ التي لم يذكر فيها هذا الاسم إلا مرة واحدة. فإذا اتكأنا في الدراسة على علاقة رسم الكلم ومصدرها بدلالاتها، فالرحمان الممدودة بالألف هذا الرسم المتداول القائم للمفردة، يرسم في الذهن دلالة المتصف المرتبط بالأعلى، فلا متصف بها سواه، أبلغ من الرحيم كما يقول النابلسي في موسوعته¹. المتصف بالرحمة العام التي قد ترتبط بالمخلوقات أيضا كرحمة الأم أو رحمة الحيوان أو رحمة المقتدر للضعيف... (وهو ما شهدناه في دراسة أخرى للرحمانية في سورة مريم)، وتشمل رحمته هنا الرحمة الدنيوية والأخروية، وفيها يثبت اتصاف الزاحم بالوصف عن قوة وعظمة، وهي صفة دالة ثبوت الرحمة مع كل تغير في كل حال ووفق كل حال أي: (الفعلان) ميزان تحيل دلالاته إلى مبلغ الرحمة مع التغير والتحول، أما الرحيم فصفة مشبهة وتدل على ثابت الصفة للموصوف بها على وجه الثبوت، ويمكن أن يتصف بها غيره، مع صفات أخرى، وتدل على الحدث/ الرحمة وصاحبه أو الفعل وفاعله. وجعلها البعض "الرحمن" صفة دالة على ذو الرحمة الشاملة في الزمن المشهود والغيبى أما الرحيم فتعلق بذى الرحمة للمؤمنين كما ذكر أبو علي الفارسي؛ لقوله تعالى: "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" الأحزاب الآية 43.

وهذا الاسم من أعجب أسماء الله الحسنى. لأنه من الأسماء التي أنكرتها قريش بالذات، وكفروا فيها النبي صلى الله عليه وسلم، ففي صلح الحديبية، قالوا أما الله فنعرفه وأما الرَّحْمَنُ فلا، فقد جاء اسما معجزا لهم. مفردا ومختلفا في صيغته. حتى اختلط عليهم فهمه وتصوره، واعتقدوا الله الموصوف بالرحمة إلها آخر. ولم يكن هذا لعجز في إدراك المعنى، بقدر ما هو إعجاز للقوم في لغتهم ولسانهم بلغتهم ومصادرهم وأوزانهم.

ومجمل ذلك في سورة الإسراء؛ يقول العلامة الطاهر بن عاشور؛ كانوا يقولون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمن، وفي ذلك نزل

¹ _ النابلسي محمد راتب، 2008، موسوعة أسماء الله الحسنى، دار المكتبي، دمشق، ط5، الجزء 1، فصل اسم الرحمن الرحيم.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتُمْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا¹: سورة الإسراء الآية 110.

2- المفرد في مقابل المثنى:

- الثنائيات الكونية:

يقف المفرد في مواجهة المثنى في سورة الرحمن، وكلما ذكر شيء مفرد من الخلق إلا وأتبعه النص بثنائيه، فكل مرتفع يقابله أدنى وكل خلق يقابله مخلوق غيره، ولعل هذه السورة هي الوحيدة التي توجه إلى الثنائي الإنس والجن معا.

ويشهد على ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن جابر قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم. كنت كلما أتيت على قوله "قَبَائِرِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانْ"، قالوا لا بشيء من نعمك - ربنا - نكذب، فلك الحمد"². فثبت هنا أنها لم تتوجه بالخطاب فقط لهذا الثنائي إنما وقرئت عليهما. وكان هناك تفاضل في تلقّيها لحساب الجن على الإنس.. وتذكيرا أن أحد طرفي الثنائية المخاطبة هم الجن في مقابل الطرف الثاني الإنسان.

وسورة الرحمن من السور المختلف في مكّيّتها من مدنيّتها³: السورة الخامسة والخمسون: 55 في ترتيب القرآني (وهو تعداد ذكر لفظة الرحمن في الخطاب القرآني)، وعدد آياتها 78 آية. ويُذكر أن سورة الرحمن من السور المتنازع في مكّيّتها من مدنيّتها لموضوعها، والمكيّ/المدني من الخطاب القرآني لا يتعلّق بنسق النص وحده فيما توجه له الآيات من معنى فقط، إنما هي ثنائية تبدو متعاقبة أكثر مع الجغرافيا المكانية والبشريّة وبعلاقة النص

¹ _ ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد). تفسير القرآن الكريم. ط1. الدار التونسية للنشر. تونس، ط1، (2007)، تفسير سورة الإسراء.

² _ أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، طبعة منقحة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 2009، تفسير سورة الرحمن.

³ _ إبراهيم عوض. سورة الرحمن دراسة بلاغية أسلوبية، شبكة الوكعة نت. www.alukah.net. ط1، 2006، ص5.

بمحلة نزوله. ولهذا فإن ثنائية مدنيّ/ مكّي أول ثنائية سيخوض فيها البحث للإثبات بالقرائن والخصائص وهى تطابق خصائص الجغرافيا النصية بالجغرافيا المكانية التي نزل فيها النص. وقد ذكرت في التفسير المشهور لابن كثير الدمشقي على أنها مكية¹. والسؤال الذي يلح نفسه ما علاقة مدنيّة السّورة أو مكّيّتها من دلالاتها المرجوة منها. من قصديّتها ومن أثرها على متلقّيها.

3- ثنائية المكيّ/ المدنيّ:

- المثنى: من جغرافيا الواقع إلى جغرافيا الدلالة:

يُعدّ كون السّورة مكّيّة أو مدنيّة جزءا من علاقة السّياق في تشكّل النص ودلالته، فالنسبة أولا تعود إلى الموضع الذي نزلت فيه السورة على النبي محمّد، وهي فترة لا تتحدد بالجغرافيا المكانية فقط بل أيضا بالجغرافيا الزمنية، فالخريطة التي رسمتها الحياة النبوية بين المكوث والهجرة كان لها الأثر في تشكّل الخطاب القرآنيّ بالشكل الذي نعرفه ووصلنا إليه، بالإضافة إلى حداثة العهد الذي ترسمه جغرافيا النصّ المكّيّة فنزوله بمكّة كان مقرونا بمتلقٍ مختلف هو متلقٍ غير عارف/ متلقٍ منكر (الفرشيين)، متلقٍ رافض، مُصاب بالدّهشة مرّات أخرى، يحيد وعيه بالكفر الذي هو أوّل أنواع الرّفْض وعدم التّقبّل من دون اتّكاء معرفيّ واضح. نوع من الإنكار والجحود والرّفْض اتّجاه الخطاب الجديد الذي جاء منضبطا محكما ومتحدّيا فيما يجيدونه؛ رفض لم يقيم على فهم ووعي أو إقامة حجّة إلّا أنّه رفش لخطاب ناسف للمركزيّات التي لم ترحزحها الخطابات السّابقة،... ولهذا يحاول هذا الخطاب تصحيح المفاهيم وإعطاء الأمثلة وضرب القصص، ويحاول أن يتعامل مع المتلقي بصفة عامة على انه متلق غير عارف ومتلق جاهل باليقين أو بالمعرفة، وأحيانا كمتلق منكر (كافر)، يتأسس التنبيه في الخطاب أحيانا على الجمع بين المختلف كالإيمان والكفر، الجن والإنس،... أي أن التذكير يخص العالمين عامة. ويتعامل الخطاب معه وفق نظام المهادنة ويسمح النص له بتصحيح المفاهيم إلى حين تحقق المعرفة المرجوة من النص. التي هي معرفة تعتمد على ذكر الأمثال الغابرة والقصص الماضية. تكررت فيها لازمة التذكر 'فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان' 31 مرة.

¹ ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، فصل تفسير سورة الرحمن.

في حين يخاطبُ النصّ المدنيّ وعيا عارفا ومتلقيا محيطا بالخطاب (المدنيّ يقابلُ المكيّ) والمدنيّة هنا، لا تحيلُ على الجغرافيا المكانية فقط، إنما جغرافيا أعادت تشكيل العقل والوعي بالأشياء والعالم المحيط بالبشريّ، جغرافيا نصيّة تصحّح السابق (من خلال خاصيّة قرآنيّة هي النسخ)، أو تجيئ بمفاهيم جديدة؛ تنظّم حياة الإنسان الجديد: الإنسان القرآنيّ/ المدنيّ والمدنيّ (تقول الدراسات بأن الاختلاف بين الاصطلاحين يحيل على المكانية والزمنيّة، ونوع الخطاب، ونوع المتلقّي، ومضمون الخطاب، وموضوعاته غير مقرون بالزمن أو المكان أحيانا، كنزوله بعد الهجرة ومانزل في حجة الوداع¹ وغيرها).

4- في دلالة الأفراد والتثنية:

يسبق الأفراد التثنية في سورة الرّحمان، وجاء الأفراد بلفظة الرّحمن التي هي اسم السورة، وعنوانها، وبها ارتبط كلّ ما بعدها، لكن الآية الموالية للآية المفردة الأولى (الرّحمن) لا تظهر دلالتها المعلن عنها من خلال الابتداء باسمه الأعظم، وفاعليته، وفيه مثلت رحمته؟ (فمن هو الرّحمان؟) وما أثره على خلقه؟... لتفسّر الآيات بعدها ذلك: علّم القرآن، وخلق الإنسان، ثم كلّ المظاهر التي تليها هي مربوطة بهذا المفرد، بما فيها الثنائيات المتقابلة. فهذه السورة المدبّجة بالمحسنات وسُميت فيها عروسا للقرآن، هي أيضا خطابٌ ضاحٍ محتفٍ بذكر النعم التي عدّدها وأحصاها الخطاب منسوبة في تثنيها كلها إلى هذا اللفظ الواحد_ المفرد في تفضّله بالإنعام، ومفردا بهذا الاسم المخصّص به الله وحده. "قل ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن، أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" الإسراء 110.

_ وفي مسألة التثنية والأفراد في السورة مرّة أخرى، يستوقفنا في السورة تكرار لازمة القول في النص في نوع من الارتجاع الأسلوبى، الذي يعمل على دقّ ناقوس التذكّر، هذه العبارة التي تأتي كلّ مرّة بطاقة دلاليّة جديدة وحمولة إعجازيّة؛ ويتوجه فيها الخطاب إلى المخاطب في صيغة المثني الذي يبدو مجهولا وغير معلوم (قبائى الآء ربكّما تكذّبان) واحدا وثلثين مرّة، ويظهر من خلال التفاسير أن المقصود بالتثنية هنا معشر الجن والإنس. حتّى يتوجّه إلى هذين الخلقين وجمعهما بمعشر الجن والإنس في السورة نفسها "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

1_ الزّرقاني، محمّد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1995، ص

إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ" الآية 33. وهي أطول آية في هذا الخطاب، فقد خاطبهما بضمير الجمع أنتم (إن استطعتم، أَنْ تَنْفُذُوا فانفذوا. لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) وأكَّد على التثنية في لازمة الخطاب. ممَّا يدلُّ أن المقصود بالتثنية هو معشر الجن والإنس، وفي الحالين يصلح استخدام ضمير الجمع أو التثنية. في التثنية تركيز على الجنس المتحدث إليه على اختلافه لا على عدده، الذي هو الجمع (المعشر)، وعلى نوع هذا الجنس. في مقابل الأفراد (الرَّب)، ليذكر وصفا جديدا له في مقابل هذه العظمة المعجزة. إنَّه الموصوف بالربوبية التي تجمع صفات الرَّحمة وترسخها للمالك الخالق والسَّيد الصَّاحب الذي وإن ضلَّ خلقه بالتكذيب (تكذَّبان) ثم أنابوا فهو لهما باق الرَّب الجامع والقائم على خلقه (رَبُّكُمَا)، وكما قال ابن فارس في مقاييسه (إِنَّ لفظ الرَّب يدلُّ على ثلاثة أصول: إصلاح الشيء والقيام عليه، الرب: المالك والخالق والصَّاحِبُ، والرَّبَّ القائم على الشيء، والرَّبَّ: الجامع للنَّاس الضَّامَّ، والرَّبَّ خلاف العبد¹).

(الرحمن الإنسان القرآن البيان الميزان،..... رَبُّكُمَا) ثم حالما يطرح هذه المفردات مفردة يلزمها في آية تليها بما يثنى، إذ قابل الإنسان بالبيان، وقابل الشمس بالقمر، وقابل النجم بالشجر، وقابل الوزن بالميزان، والأرض بالأنام، والنخل بالفاكهة والحب بالريحان وثم عاد وقابل السماء بالميزان، كل هذه الثنائيات يقابلها في حلة الأفراد مفردة واحدة هي (الرَّحْمَنُ)، التي هي محل سؤال قريش: وما الرحمن؟، فكل هذه الثنائيات الكونية الشمس والقمر الجن والانس الطَّيْن والنَّار، النَّجْم والشَّجَر، الْجَنَّتَان، ومن دونهما جَنَّتَان، البيان القرآن، الفاكهة والتَّخْل، الحب والريحان، المشرقان والمغربان، اللؤلؤ والمرجان، البحرين... ويظهر فيها التقابل على أساس من قرينة التَّعَالُق تجمع بين طرفي المتقابلين، وكلها مربوطة بالواحد (الرحمن) في هذا الخطاب. فالبيان والقرآن مربوط بالإنسان الذي يحققه، يتكلم به أو يسمعه. ثم عدد ذكر الآيات الكونية أو الثنائيات الكونية التي ترتبط كلها بصورة ما بتأثير الرَّحْمَن المتفرد بالرَّحمة لكنه متفرد أيضا بالاتزان والحكمة والعلية والفوقية، لان كل ما سواه مقرون بصورة ما بثنائيه وذكر أمثلة عن ذلك؛ فقرنا لنجم بالشجر الأدنى، والشمس والقمر والنخل والحب، الأرض والأنام،...وهي ثنائيات تتكئ أيضا على علاقة السفلي

1 _ ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر العربي، دمشق، ط 1979، مادة رب.

بالعلوي. وكلاهما يتحرك بالعبادة والسجود، والشمس والقمر ثنائية كونية تتحرك بحسبان بتقدير من الرحمن ولو اختل توازن هذا الحساب لاختل توازن الحياة البشرية. ثم قابل بين ثنائية السماء والميزان، فميز الأولى بالرفع والعلية وميز الميزان بالضعة والتحقق الأفقي الأرضي، لأن الميزان هو العدل، الذي وجب تحقيقه في الأرض تحت السماء. بل الميزان هو دستور الاتزان بين الأرضي والعلوي. ولهذا كانت هذه اللفظة مفردة التوازن بين السفلي والمقدس العلوي، وبين جدل المتفق والمختلف الأرضي، وكانت فصلا في معرفة الرحمن والمعرفة به، المتّصف بالرحمانية (منتهى الرحمة) المتّصف بإقامة الميزان.

ثم قرن بين الأرض والأنام، لأنّ تحقّق الأولى يتوجب وجود التالية: (الأنام والأرض)، فالميزان موضوع في الأرض لتحقّق التّوازن بين الأنام. وكلّهما من دلائل رحمة الرّحمان، موصولة به، ثم استكمل صور رحمته، فيها فاكهة والنّخل ذات الأكمام، هذه الكائنات والمزايا لم تعط لكانن على حساب آخر بل من رحمته هي لكل البشر.

وحين ينصّب في الخطاب/ السّورة هذه المقابلة للثنائيات يجمع بين الأطراف الفاعلة بالفعل الذي تحقّقه، أو الذي تتحقّق به. ويفترض بها أو تحصّله وتقوم به. فقد خلق الإنسان مقابل العلم، وفي التّفاسير يشار للبيان الذي تعلمه الإنسان (آدم كما تقول تفاسير أو الإنسان عامة كما ذكر آخرون حيث علّمه الفصاحة والإبانة عن مطالبه على خلاف المخلوقات)¹ أنّه تعلّم النّطق والحروف، ويصبح العلم في مقابل ثنائية جديدة (القرآن والبيان)، هل القرآن إذن هو البيان الذي علمه الله للإنسان؟ فعلمه القرآن وعلمه البيان. أم البيان هو اللغة التي تفضّل بها الإنسان عن غيره، ثم تتوالى المتتاليات الخطابية قارنة الثنائية جامعة بينها في ثنائيات متقابلة أو متماثلة، لتعود كلّها إلى مصدر واحد هو الرّحمن.

فالسّماء "رفعها" و"وضع" ما ينظّم حياة هذا البشريّ (الميزان)، فيتقابل الفعلان، الوضع والرفع، ويتقابل الاسمان: السّماء والميزان، فالرحمن الباسط فعل الرحمة، رحمته بين السماء يحقق التوازن في العلوي، بوجوده، ويحقّقه بما يمثله كعدل محيط في الأرض بما فيها من خلائق بفضل آلية الميزان الدّال على ذلك.

¹ _ الطّبري، جامع البيان، تفسير سورة الرحمن.

وذكر صور من الحياة الأخرى/ الآخرة (صور تضع المتلقي للخطاب في مجال من التخيل لعوالم غيبية: يقع بينها كعارف لها من خلال وصف الخطاب لها ومن خلال أفق التخيل)، هذه الحياة غير معلومة ولا معروفة ولا مبررة وفقا للمعرفة البشرية السابقة/ المعرفة الدنيوية ومعرفة الجاهل؛ التي هي معرفة قاصرة ومحدودة، هذه الصور كلها في شكل ثنائيات؛ الأصل وما دلّ عليه: جهنم/ حميم آن، جنتان، النواصي والأقدام،...عينان نضاختان، شواظ من نار ونحاس،... وفصل في نهاية النص بتعظيم اسم الله ووجهه بفعل التقديس تَبَارَكَ (المقصود إجلال الله تعالى، قبل خلقه فهو أهل أن يُجلَّ فلا يعصى وأن يكرم فيعبد، وأن يجلَّ فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر وأن يذكر فلا ينسى¹). (تفسير ابن الكثير سورة الرَّحْمَن)؛ الذي من معانيه التقديس والعلو والرفعة والتّزّيه، وتعلية الشّأن وتعظيم الجاه، وكثرة الخير والإحسان (للاستزادة ينظر المعاجم العربية مادة برك: المعجم الوسيط. مختار الصحاح ولسان العرب..)، موصوفا بصفتين مقرونتين، مختلفتين ومتضافرتين، فذو الجلال قوي متين حزم عدل... وذو الإكرام رحمن رحيم كريم باسط رافع ودود رؤوف... فهذا الاسم جامع بين حقلين دلاليين في صفات الله للقوة والمنعة مقابل الرحمة والكرم. فهو على جلاله وقدر قوته التي يملك بها الأمر النافذ على خلقه، هو الذي يتصف بكمالات الرحمة والعدل والرّأفة وكأنّه اسم جمع كل صفات الموصوف بالرحمانية: الرَّحْمَن، وإثباتا بعد ذلك على رحمته بعد عدله وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَلْطُوبُ ب: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.² (رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني)، أي لزومها والثبات عليها والإلحاح بها في الدعاء. فهذا اسم يختزن الصفات والأسماء والأحوال التي عليها ذاته الإلهية، ويغلب فيها حال الرحمة وصفتها واسمها. تأكيدا منه عزّ وجلّ على أن ربّ الاسمين ذي الجلال والإكرام مالك القوّة والمنعة تغلب رحمانيته بقيّة صفاته وكلّها وجلّها. وكلّ ما ذكر في السّابق من ثنائيات الخير العميم في مقابل عذاب أليم، إلا مقرونة به، لكنه يغلب رحمته المفردة كخصيصة مميزة على باقي خصاله وأسمائه رحمة أخرى منه

¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الرَّحْمَن.

² النيسابوري، عبد الله الحاكم، المستدرک على الصّحّیحین، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط2002،

لخلفه المثنى. ولهذا سميت السورة بهذا الاسم وهذه المفردة تأكيداً مرة أخرى على رسوخه وعلى منح الأمان في الخلق بالخالق.

الخاتمة:

تتكرّر في النص لفظة أخرى بين الثنائيات، وهي لفظة الميزان لكنها تتكرر ثلاثة مرات في مقدّمة السّورة، لتتفق دلالة اللفظة مع قيمتها وتكرارها في النص، فتفصل بين المفرد والثنائيات، ليتحقق التوازن نصاً ودلالة، فالرحمانية لا تتحقّق إلا ميزاناً وعدلاً، وصاحب القوّة ذي الجلال والإكرام لا يرحم أو يعاقب إلاّ بميزان بين خلّاقه؛ والاسم الذي جاء ختاماً في السّورة، يشتمل على صفات للموصوف بالرحمة والرحمانية أولاً، الّتي لا يشاركه فيها مخلوق، وأسماء الله الحسنى كلّها دلّت على صفاته، لكن اسماً واحداً هو الله علّم على الذات، ويدلّ على كلّ أسمائه، فإذا قلت يا الله (وهو اسم علّم مفرد لا جمع له، في حين تجتمع فيه الصفات، وليس هو من الأسماء التي يجوز منها اشتقاق فعل كما يجوز في الرحمن والرحيم).¹ فمعناه محيطٌ بكلّ تلك الصّفات²، وفي هذه الصفة بالذات، قرن حقلين دلاليين كما ذكر سابقاً، متقابلين بين القوة والرحمة، والعزّة والكرم. فأسست لاسم ثنائي جامع (ذو الجلال والإكرام)، مقابل للاسم المفرد المتفرد: هو الله الموصوف به (الرحمان)، معلنا قيمة اسمه المبارك، رباً وإلهاً.

1 _ ابن منظور، محمد، لسان العرب المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت. ط 2009. مادة أله.

2 _ الثّابلسي، موسوعة أسماء الله الحسنى.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1_ الطبري، محمّد بن يزيد بن جرير، (2012). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. سورة الرحمن. ط1. مؤسسة الرسالة. لبنان.
- 2_ بن عاشور. الطّاهر، ط(2007). التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد). تفسير القرآن الكريم تفسير سورة الإسراء. ط1. الدار التونسية للنشر. تونس.
- 3_ أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ط2009، تفسير القرآن العظيم، سورة الرَّحْمَن، طبعة منقحة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- 4_ إبراهيم عوض. سورة الرحمن دراسة بلاغية أسلوبية، ط1، شبكة ألوكا نت. www.alukah.net. 2006.
- 5_ السيوطي، جلال الدّين، ط2002، لباب النقول في أسباب النّزول، دار الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
- 6_ النيسابوري عبد الله الحاكم، ط 2002، المستدرک على الصّحّاحين، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 7_ النَّابلسي محمد راتب، 2008، موسوعة أسماء الله الحسنى، دار المكتبي، دمشق، ط5.
- 8_ بن منظور، محمد، ط2009، لسان العرب المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 10_ الزرقاني، محمّد عبد العظيم، ط1995. مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 11_ بن فارس أحمد، (ط1979) معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الفكر العربي، دمشق.